خلاصة من تاريخ دمشق وأثره على الأمة

انتقاء

د / عبد الله بن علي الميموني

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسلام على خاتم المرسلين نبيّنا محمد صلَّى الله عليه وسَلّم وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين أمّا بعد

فقد كنتُ بعد سقوط نظام الأسد البائد وزوال ذلك الفاسد خطر ببالي أن أكتب عن (سوريا في عيون علماءها ومفكريها قبل قرنٍ ونيفٍ). لأحيي دَفين طُموحاتهم وأعيد رفاتَ أمانيهم في نهضة سوريا وعموم بلاد الشام وأنشر بعضاً من أفكارهم و آراءهم الحميدة ومقترحاتهم السديدة حول ذلك ومعه بعض آراءهم في سُبل نهضة الأمة عموماً، مشيداً بذكر ما عاشوا دهوراً من أعمارهم يؤمّلونه من رفعة سوريا وجميع بلاد الشام وتقدّمها لعلّ خيالاً يطيف بأرواحهم الزاكية يؤذنهم بانبلاج فجر جديد يحمل أملاً ويهدي إلى ذكراهم نفحات تخبرهم أنّ غرسهم قد أثمر في وجدان أجيال بعدهم وسوف يُورق ويُزهر ، وأنّ نتاج تلك الأعمال والأفكار والوصايا لم تضع سدى عند الله – إن شاء الله – ولا عند النابهين من أبناء أمّتهم فلقد اجتاحني شعور عامّ بالفرح وبتجدد الأمل فاضت له دموعي وأثّر فيّ فجعلتُ أستذكر في مخيلتي بعضاً ما مرّ بي من آراءهم السديدة وآمالهم الحميدة مما كان قد توارى وطواه النسيان وأبداه الحبّ والوجدان عند أول قبسة نور تجدّد بها الأمل.

ورجوتُ أن يفتح ذلك الباب لمن ينفض الغبار عن لطائف من حكمتهم ورائق أشعارهم وبديع خيالاتهم وجميل أمنياتهم ليساهم ذلك في ظهور جيل متعلّم متنوّر متمسك بعقيدته معتدل في طرحه وفكره.

ولتكون تلك الأفكار مما يضاف لغيرها من إرث ثقافي يكون موضع مفخرةٍ أخرى للعرب وللمسلمين وليتبين للمطالعين روائع من نصائحهم وخبراتهم وبديع نظراتهم فيما يتعلق بمستقبل الشام بل والأمّة.

وليشاهد المطالع كيف كانت آمالهم عالية في الرقي والبناء والتقدم والازدهار، هذا مع الإشارة إلى بعض من كان فيها من علماء ومفكّرين وسفراء وباحثين وأدباء وغيرهم.

وليُستحضَرَ بعضاً مما دوّنوه عن تاريخ وأحوال سوريا والشام عامة وما كتبوه عن آمالهم في التحرّر من الاستعمار الفرنسي وغيره وما سطّروه من رؤيتهم لما قد تلا ذلك من إصلاحات وإخفاقات وحكومات وانقلابات.

وما يلحق بذلك من ذكر بعض ذكرياتهم حول الشأن العام للأمة كل ذلك على ضرب من الإيجاز.

ومن أمثلة ذلك ما كتبه أو قاله لتلاميذه علامة الشام طاهر الجزائري وغيره من طبقته وتلاميذه المؤثرين من أمثال محمد كرد علي وغيره وعبد الرازق البيطار، والشيخ جمال الدين القاسمي والزركلي وغيرهم وبعض أصدقاؤهم ومجاوريهم في لبنان من أمثال أمير البيان شكيب أرسلان ومحمد رشيد رضا وغيرهم ممن حملوا هم الشام كله ثم من تلاهم من أمثال الشيخ علي الطنطاوي وطبقته فإن هؤلاء لو بعثوا لسرّهم خلاص بلدهم وأمتهم من النظام الأسدي البعثي الجائر ، ولو قدّر لهم أن ينصحوا لأمتهم وبلدهم لنصحوهم بما كانوا يردّدونه من الأخذ بالأسباب والجمع بين علوم الدين والدنيا وحسن الإفادة من الأمم الأخرى والإصلاح المتدرجّ لمجتمعاتهم بلا عنفٍ، والتعاون والتكاتف، وجمع الكلمة لمحاولة اللحاق بركب الأمم المتحضرة مادياً لينهضوا ببلادهم، وليكونوا أقدر على مواجهة الأعداء وأقدر على إفشال مخططات الصهيونية وغيرها، ولكنني رأيت أن ذلك قد يطول وأنّ كثيراً من المثقفين والعامة والناشئة من أهل الشام ومن سائر البلاد العربية والإسلامية أحوج الآن إلى ملخص موجز عن تاريخ دمشق أمّ المدن الشامية وعما مرّت به من نهضات وكبوات عبر العصور وعن بعض ما جرى لأهلها من نكبات وما في كل ذلك من العبر، فعدلتُ في هذا الوقت إلى كتابة خلاصة عن تاريخ الشام ودمشق خاصة مع ربط ذلك بتسلسل الأحداث حتى الوصول إلى تاريخ الحروب الصليبية وغيرها مع التنبيه على بعض الأحداث العظمى المرتبطة بتاريخ الشأم ثم بقصة ارتباط دولة السلطان العادل نور الدين زنكي ثمّ دولة صلاح الدين الأيوبي بذلك، وما تخلل ذلك في دولة نور الدين زنكي من تحرير مصر من سلطة العبيدين الفاطميين الباطنيين مروراً بتحرير بيت المقدس وغيره من الصليبيين ، ليكون المطالع لهذه الخلاصة من أهل الشام وغيرهم قد فهم تسلسل الأحداث بشكل عامّ وأدرك الحكمة في هذا التسلسل التاريخي العجيب وكيف كان أثره كبيراً على حماية الأمة وعلى صيانة بيضتها، وليدرك الناظر فضيلة هذا القطر العربي الشقيق وأثره على المحمود على الأمة في مختلف أدوارها ويبصر عمق ارتباطه بما حوله من الأقطار العربية بحيث تسرها أفراحه وتحزنها نكباته .

وفي التاريخ عبر كثيرة تمهد الطريق للفهم الصحيح والعمل النافع وتردّ بمضامينها ووقائعها على المتعصبين ممن يسارعون في تشتيت جهود الأمة في البناء إلى توسيع الخلاف والتعصب والتحزب على حساب

البناء واجتماع الكلمة وتحقيق الألفة أو الاندفاع نحو نشر بذور التطرف والغلوّ ، فالسنن الكونية في القوة والنُّشوء والضعف والاضمحلال تتشابه في أسبابها وفي غير ذلك وإن اختلفت في كيفياتها وصفاتها الذاتية وفي أنواعها ودوافعها ومسبباتها ولكلّ عصرٍ صفاتها وأحواله التي تُراعى وتُفهم على حقيقتها بعيداً عن نوازع الحزبيات والأهواء وتأثير الشعارات الزائفة.

والتاريخ مرآةٌ يرى فيها العقلاء أعظم العبرة ويستنبطون منها أنواع الحكمة، ولم يزل العلماء والحكماء يوصون بقراءة سير العظماء والحكماء ويحضُّون على تدبّر التواريخ والاعتبار بما فيها.

وتاريخ الأمة في مشرقها ومغربها يحمل في طياته كثيراً من العِبَر والتجارب. وأمّا سيرة نبينا المرسل بالرحمة صلَّى الله عليه وسَلّم فهي فوق ذلك لما فيها مع ذلك من القدوة والأسوة الحسنة والحكمة البالغة والرحمة والإحسان والعدل والوفاء فالوصية بها أعظم والنّفع بها أكبر.

وهذه الخلاصة أو النّبذة المختصرة منقولة من التواريخ الموثوقة العامة والخاصة بالشام كتاريخ دمشق لابن القلانسي وتاريخ ابن الأثير والروضتين للحافظ أبي شامة وتاريخ الإسلام الذهبي وغير ذلك.

وتواريخ الأحداث الكبرى عند المسلمين مبنيّ في أصله على التثبّت بالرواية عمن رأى تلك الأحداث أو عاصرها ووصل إليه جليّة خبرها أو سمع ذلك من ثقات قد عاصروا أو رووه بأسانيد يقبل مثلها في التاريخ والأخبار، وبعد انتشار كتابة التواريخ وكتابة تراجم الرجال وأحوالهم وكتب تواريخ البلدان أضحى الناظر يرى أنّ كثيرا من الأحداث الكبرى في تلكم التواريخ يتوارد نقلها من جهات مختلفة فيعتضد الخبرُ بالخبرِ. وهذا أمر يطول شرحه على وجهه لكني ألمحتُ إليه هنا ليطمئنَّ الناظر في مصادر هذه الخُلاصة وأنها عن ثقات المؤرخين وليست كأساطير الإخباريين وأسمار النقلة المجهولين.

وقد رأيت أن أجعل هذه الخلاصة في أجزاء مختصرة لتكون أيسر للمطالع.

وهي هدية لكل مسلم ولكل عربي حرّ يحب بلاد الشام ويحبّ الخير لأهلِها ولكلِّ محب للتاريخ.

الجزء الأول:

لقد كان اسمُ الشّام يتناول سوريّة اليوم وأكثر فلسطين وبعض الأردنّ وغير ذلك. وكان من أشهر مدن الشام دمشق وحمص وحماة وغيرها وأمّا في اصطلاح كثير من الجغرافيين العرب قديماً فقد كانت حدود الشام أكبر من ذلك.

ولم تزل القبائل العربية تقطن مدن الشام وكان بعضها قد انتقل إلى النصرانية، ومن أشهر القبائل العربية التي سكنت الشام قبيلة غسان الذين حكموا عددا من مدن الشام مدة من الزمان وقبيلة تنوخ و تغلب ولخم وقبائل من كلب وغيرها.

ومدحها الشعراء قديماً ووصفوا طيب مدنها ومغانيها. وقد ذكر ياقوت الحموي وغيره قول الشاعر:

بلاد بارك الرّحمن فيها، ... فقدّسها على علم وخُبْرِ

بها غُرر القبائل من معدٍّ ... وقحطان ومن سَرَوات فِهْرِ

لمحة عن فضائل الشام

نزلت نبينا صلّى الله عليهِ وسلّم في حياة آياتٌ فيها بعض فضائل الشام ووصفها بالبركة يعني كثرة الخير:

كما في قوله تعالى: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا} [الأعراف: ١٣٧].

يعني أرض الشام وهي التي أورثها الله لبني إسرائيل. ولذلك فسرها الحسن وقتادة وغيرهما بأرض الشام فالمقصود مشارِقَ الشامِ.

وقال تعالى: {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ٧١]. فقد نَجَّى الله إبراهيمَ ولوطًا مِن نُمْرودَ وقومِه في أرضِ العراقِ {إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} وهى الشامِ.

وروى الطبريّ وغيرُه عن أُبيّ بن كعبٍ -رضي الله عنه - أنَّه قال في قوله تعالى: {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ} [الأنبياء: ٧١].قال: الشام.

وقبل بعثته صلّى الله عليهِ وسلّم ثم في حياته كانت قوافل قبائل العرب تجيئ وتذهب للبيع والشراء والتزود من الشام في رحلة الشتاء والصيف وغيرها.

تاريخ الشام في عهد المسلمين

بعد هجرته صلّى الله عليهِ وسلّم إلى المدينة بسنوات قليلة أرسل جيوشاً إلى أطراف الشّام وكان أكبرها جيش غزوة تبوك الذي قاده بنفسه في سنة تسع من الهجرة، وفي تلك الغزوة كان الصلح مع بعض القرى في أطراف الجزيرة ففيها كان الصلح مع صاحب دُومة الجندل وهي قَرْيَةٌ تتبع لمدينة الْجَوْفِ والجوف مدينة معروفة على أطرافِ البلاد السّعودية من جهة الشّام. وأقام بتبوك عشرين ليلةً ثمّ رجعَ و لم يلقَ كيداً. وتبوك على أطراف جزيرة العرب من جهة الشام.

وفي سنة إِحْدَى عَشْرَةَ مِنْ مُهَاجَرِهِ، أمرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم النَّاسَ بِالتَّهَيُّؤِ لِغَزْوِ الرُّومِ في الشام وعقد لأُسَامَةَ بن زيد لِوَاءً بِيَدِهِ الشريفة وتوفي صلّى الله عليهِ وسلّم قبل خروج جيش أسامة فلما تولي أبو بكر بعثه فخرج بالجيش وقاتل وَشَنَّ الْغَارَةَ ثمّ رجع للمدينة غانماً ثم أرسل أبو بكر رضي الله عنه الجيوش إلى الشام في سنة (١٢ هـ)وما بعدها وكان من قادة الجيش أمين الأمة أبو عبيدة بن الجرّاح ففتحوا الفتوح ثم أمدّهم بخالد بن الوليد و معه جيش كان معه في العراق وبعد وفات الصديق سنة (١٣ هـ) أكمل عمر الفاروق رضي الله عنه تلك الفتوح وأتمّها.

وفي سنة أربع عشرة من الهجرة فُتحت دِمَشْق فتح بعضها عنوة وبعضها صلحاً وأجراها عمر صلحاً كلها مع كون بعضها قد فتح عنوة، فدمشق عُمريّة نسبة إلى عهد الفاروق عمر بن الخطاب ثمّ هي أموية فقد شادها بنو أمية وصارت عاصمة الخلافة قرابة قرنٍ ثم صارت عباسية بعد سنة (١٣٢هـ) وانتقلت في خلال ذلك من دولة إلى دولة وبقيت منارة من منارات الإسلام والعروبة.

وفي سنة (١٤هـ) فتحت بعلبكّ وحمصُ صلحاً ، وهرَبَ هِرقْلُ عظيمُ الرُّوْم من أنطاكية ثم في سنة خمس عشرة كانتْ وقعة اليرموك المشهورة قيل كان المسلمون: ثلاثون ألفاً والرُّوْم أكثرُ من مائة ألف وكانت هذه المعركة من أعظم الفتوح ثم في سنة ستّ عشرة فُتحت حلب و أنطاكية صُلْحاً.

وفي سنة ستّ عشرة جاء عمر ﷺ من المدينة ليتسلّم بيت المقدِس صُلْحاً وإحساناً فأخذها بالأمان ولم تهرق فيها الدّماء وكان ذلك من دلائل حكمة الصحابة والتابعين وإحسانهم ومن أعظم صور رقي أخلاق المسلمين في عصور كان الظلم والعسف وانتهاك الحرمات فيها شائعاً قبل وجود القوانين الحديثة ب بقرابة ثلاثة عشر قرناً.

و في سبع عشرة خرج عمر رضي الله عنه إلى موضع يُقال له : سَرْغ في الشام ونزل خارجَ دِمَشْق ووقع الطّاعون –والطاعون مرض شديد العدوى كان يهلك بسببه خلق كثير– فاستشار عمر من معه من الصحابة فاختلفوا فمنهم من أشار عليه بالرجوع لئلا يقدمَ بنفسه وبالناس على هلكةٍ ومنهم من أشار بالتوكل على الله ودخول دمشق الخ فاختار عمر رأي من أشار بالرجوع و عزم على الرجع إلى المدينة ، و أصاب السنّة قبل أن يبلغه الحديث الوارد في هذه المعضلة (١) . والقصة مفصلة في الصحيحين وسائر كتب السنة.

وفي سنة ثمان عشرة توفي أبو عبيدة بن الجراح من العشرة المبشرين بالجنة ومعاذ بن جبل وغيرهما من الصحابة والتابعين بسبب الطاعون.

واستوطن الشّام طائفة من الصحابة ومن كبار علماء التابعين وغيرهم ثم كانت دار الخلافة ومجمع رؤوس العرب، واستوطن دمشق بعد ذلك أممٌ لا يحصون من علماء المسلمين وقادتهم ورؤسائهم وأصحاب الفضل منهم وغيرهم.

وكان يزيد بن أبي سفيان أميراً على دمشق ولاه أبو بكر رضي الله عنه وبعد وفاته ولّى عمر رضي الله عنه أخاه معاوية بن أبي سفيان فبقي أميراً على دمشق عشرين عاماً ثم لما تولى الخلافة سنة ٤١هـ. انتقلت الخلافة إلى دمشق وكان لدمشق مكانة عظيمة عند المسلمين وامتدت تلك المكانة بعد ذلك وترسخت حين غدت عاصمة الخلافة واستمرت الخلافة فيها إلى سقوط دولة بني أمية سنة (١٣٢هـ.) ولكن تخلل ذلك سنوات من خلافة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه من سنة (٦٤هـ) حتى استشهد سنة (٧٣هـ) فاستوسق الأمر لعبد الملك بن مروان الخليفة فمجموع مدة دولة بني أمية مع اقتطاع ذلك قرابة ثلاث وثمانين عاماً.

وانتقلت عاصمة الخلافة بعد سقوط دولة بني أمية إلى العراق إلى الكوفة ثم إلى الأنبار ثمّ استقرت الخلافة ببغداد في عهد أبي جعفر المنصور من عام (١٤٥هـ) وأصبحت بغداد حاضرة العالم وعاصمة الدّنيا قروناً متطاولة وإن تخلل ذلك فتن عظيمة وتقلبات كبيرة.

---

(١) في الصحيحين.: «فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ - وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ - فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي مِنْ هَذَا عِلْمًا؛ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ. قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ثُمَّ انْصَرَفَ». واللفظ للإمام مسلم «صحيح مسلم» :(٧/ ٣٠ ح:٢٢١٩).

وقد بقيت دمشــق ومعها مُدُن الشّــام مناراتٍ علم وخير ورخاءٍ وأمنٍ مدداً طويلة من الزمان في عهد بني أمية ثمّ في عهود طويلة في كثير من أيام الدولة العباسية وعهد بعض الدول المستقلة عنها.

ثم حدثت بعد خلافة هارون في بعض السـنين أهوال وفتن كثيرة واسـتقام الأمر حيناً حتى كانت سـنة (٢٦٤هـ). فتملّك أحمد بن طولون وأصله تركيٌّ مصرَ والشّام واستقل عن الخلافة العباسية.

ثم في سنة تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَمِائَتَيْنِ بدأت المصيبة العظمى بانتشار الْقَرَامِطَةِ فِي سَوَادِ الْكُوفَةِ في العراق وغيره ثم هزموا أمير جيش دمشــق ثمّ حاصـروا دمشــق فصـالحهم أهل دمشــق على مالٍ دفعوه، وكان ذلك بدأ انتشـار الباطنية فيما حول دمشــق في أهل الغوطة وفي غيرها ، وقد كانت سـنة (٢٩٠ — ٢٩١) بلاء عظيما على الشـام بسـبب القرامطة وقد تملكوا حمص، وسـاروا إلى حماة والمعرة، ثم بعلبك، فقتلوا وسـبوا خلقاً ،وازداد ضعف الدولة العباسية وجرى على أهل العراق والشام خطوب صعبة مذكورة في التواريخ.

ثم كانت الروم في سنة ٣١٤ هـــ وما بعدها ينهبون أطراف الشام ثمّ في سنة اثنتين وعشرين وثلاث مئة بدأ ظهور دولة بني بويه التي حكمت المشـرق والعراق وكانوا من الرافضــة وكان فيهم مع ذلك جور وظلمٌ عظيم، وفي خلال ذلك وبعده كانت دولة بني حَمدان في الموصـــــل ثمّ في حلب وغيرها وفي بعض مدن الشـامِ ومن أشـهر أمراءها ناصـر الدّولة ابن حمدان و أخيه سـيف الدولة صـاحب المتنبي و كان في بني حمدان تشـيعٌ ولكن كان في سـيف الدولة خصــال حميدة من جهاد وبطولات ومواقف محمودة مع الرّوم ولذلك وغيره فقد قال الذهبي : (كان بطلاً شـــجاعاً كثير الجهاد، جيد الرأي، عارفاً بالأدب والشـــعر جواداً ممدّحاً)اهـــ. واتهمه بعض المؤرخين بأنه كان فيه أيضاً عسف ومصادرة للأموال لكثرة إنفاقه. وفي خمس وثلاثين وثلاثمئة ملك سيف الدَّولة دمشق ثمّ حورب فخرج منها.

وقد وقعت الطوامّ على الشـام في سـنة ثمان وخمسـين وثلاثمئة وما بعدها ففيها أغار الروم وقتلوا وسـبوا ووصلوا إلى حمص، وعظم المصاب، وفيها أخذ بنو عبيد الفاطميين الباطنية ديار مصر وكانوا قد أسسوا دولة في المغرب العربي ثم اسـتولوا في هذه السـنة على مصـر فكان في العراق الرافضــة البويهيون وكان في مصر ثم في الشام العبيديون الباطنية وهم شرٌّ من الرافضة ، وفي سنة ستين وثلاثمائة دخل القرامطة دمشق وقتلوا أهلها وسفكوا الدّماء.

وملك الفاطميون الشام من سنة: (٣٦٤ — ٣٩٤هـ.) ثم كانت الدولة السلجوقية التركمانية أصلهم من أعمال بخارى وهي دولة سنّية جاءت من المشرق سنة ٤٤٧هـ فحكمت العراق وغيره.

ومن الأحداث أنه في سنة (٤٧٩) توفي منصور بن دبيس الأسدي بهاء الدّولة ، صاحب الحلّة والنيّل ،وكان من أكبر أمراء العرب في عصره ، كان فارساً شجاعاً مذكوراً. وأديباً شاعراً. ذا رأي وسماحة.

قال الذهبي: (كان عادلاً حسن السّيرة، مات في الكهولة سامحه الله، وولي بعده ولده سيف الدّولة صدقة بن منصور).

ومن أخبار ابنه سيف الدولة صدقة هذا أنه في حوادث سنة إحدى وخمسمائة كان قد صار ملك العرب في زمانه، وبنى الحلة ومصَّرها، وقبل ذلك كان صاحب عمود وبيوت شعر، فعظم شأنه، وارتفع قدره، وصار ملجأً لمن يستجير به، وكان معينًا للسلطان السلجوقي في العراق على أخيه في حروبه، وناصرًا له، فزاد السلطان في إقطاعه مدينة واسط، وأذن له في أخذ البصرة لكن أوغروا صدر السلطان عليه فكانت بينهما حروب انتهت بمقتل صدقة هذا. قال الذهبي: (وكان صدقة كثير المحاسن في الجملة، محبَّبا إلى الرعيّة).

وقد ملكت الشام الدولة الأتابكية دولة آل زنكي الآتية في حدود سنة (٤٩٠هـ).

و قد عانت الشام وسواحلها من الحروب الصليبية من سنة ٤٩٠ – ٥٠٠ وما بعدها ففي سنة تِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ كان أول دخول الصليبيون إِلَى أطراف بِلَادِ الشَّامِ بعد حوادث وحروب ثم في سنة اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ استولوا على بيت المقدس وبالغوا في القتل فقتلوا مَا يَزِيدُ عَلَى سَبْعِينَ أَلْفًا في المسجد الأقصى وما حوله مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَعُلَمَائِهِمْ، وَعُبَّادِهِمْ ارتكبوا بشهادة بعض مؤرخيهم أنواع التعصب الأعمى، وكان دخولهم بيت المقدس وقتَ انشغال ملوك وسلاطين المسلمين واقتتالهم مع بعضهم، ولما تَمَكَّنَ الْفِرِنْجُ مِنِ بلاد الشام والمقدس خاصة حزن المسلمون ومما قاله الشعراء في ذلك الوقت :

وَكَيْفَ تَنَامُ الْعَيْنُ مِلْءَ جُفُونِهَا،،، عَلَى هَفَوَاتٍ أَيْقَظَتْ كُلَّ نَائِمِ

وَإِخْوَانُكُمْ بِالشَّامِ يُضْحِي مَقِيلُهُمْ،،، ظُهُورَ الْمَذَاكِي، أَوْ بُطُونَ الْقَشَاعِمِ

تَسُومُهُمُ الرُّومُ الْهَوَانَ، وَأَنْتُمُ ،،،تَجُرُّونَ ذَيْلَ الْخَفْضِ فِعْلَ الْمُسَالِمِ

وبقيت مدنٌ مهمة بسواحل الشام عصية على الصليبيين سنوات كطرابلس وبيروت واللاذقية ومكثت تقاوم إلى حدود سنة ٥٠٠ وقد بقيت بيروت إلى سنة (٥٠٣هـ)

قال البحاثة الأستاذ محمد كرد علي : (وقد أنجدت الدول المجاورة الشام نجدات مهمة على بعد المدى وقلة المواصلات. وأبلى جند التركمان والأكراد مع عرب الشام والموصل البلاء الحسن في هذه السبيل، ولكن كانت القوى الصليبية عظيمة جداً لا قبل لهم بدفعها، فكان موقف المسلمين على الأغلب موقف المدافع لا المهاجم [٢])اهـ.

نعم كان الصليبيون يتوافدون على سواحل الشام كالسيل الجارف هذا مع ضعف المسلمين لكثرة الخلاف بين السلاطين المتغلبين على البلدان ولانتشار الباطنية ولفشو الرفض ولكن كانت هناك حروب وكر وفرّ ولو كانت الشام كلها وسواحلها تحت إمرة سلطان سنيّ قوي لما تمكن الصليبيون من ذلك وكذلك لوكان في العراق خلافة قوية لما تمكنوا ولكن هكذا سنة الله في الأمم تضعف بالاختلاف والتفرق . وقد كان سيف الدولة الحمداني وغيره يقاتلونهم ويجالدونهم.

ثم كان بعد ذلك أمراء في الشام يقاتلون الصليبيين وكان منهم أمير دمشق طغتكين الآتي ذكره فاشتهر بجهاد الصليبين والدفاع عن دمشق وما حولها ولكنه اضطر بعد سنوات من الحروب التي كانت سجالا بينهم إلى مهادنة ملك بيت المقدس الإفرنجي.

وكذلك قاتل المصريون الفرنجة حيناً في أطراف الشام وممن قاتلهم ابن عمار ملك طرابلس وغيره. ثم كان ممن تولى الحمل الأكبر من جهاد الصليبيين عماد الدين زنكي ثم ابنه الإمام العادل نور الدين زنكي الآتي ذكره ثم صلاح الدين يوسف الأيوبي كما سيرد.

وفي سنة عشرين وخمسمائة كثرت الإسماعيلية الباطنية بالشام، وكان الناس والكبار يخافونهم.

وفيها توفي طغتكين أمير دمشق البطل الذي كان يقاتل الصليبيين مدة طويلة وهو طغتكين أبو منصور أتابك قال ابن الأثير: (كان عاقلًا خبيراً، كثير الغزوات والجهاد للفرنج، حسن السيرة في رعيته، مؤثرًا للعدل). وقال غيره: حزن عليه أهل دمشق. وكان حاكمًا على الشام خمساً وثلاثين سنة.

وفي سنة اثنتين وعشرين وخمس مئة تملّك حلب عماد الدين زنكي الذي ولي ديار الْموصل والبلاد الشامية

وقد كان لظهور دولة عماد الدين زنكي هذا أثر كبير في جهاد الصلبيين وفي حماية الشام وغيرها ووالد زنكي هو آق سنقر كان قد وِلِيَ حلبَ وَغَيرهَا من بِلَاد الشَّام.

---

(٢)خطط الشام: ٢٨٠/١

وفي سنة ثلاث وعشرين وخمس مئة أخذ زنكي حماة من بوري بن طغتكين وفي هذه السنة أراح الله من الباطنية الإسماعيليّة بدمشق بعدما عاثوا فساداً فقتلهم بوري بن طغتكين فسلّم بهرام الباطني قلعة بانياس للفرنج، وجاءت الفرنج فنازلت دمشق فقاتلهم عسكر دمشق مع العرب والتركمان وبيّتوا الفرنج فهزموهم.

وفي سنة ٥٢٦ استشهد بوري بن طغتكين أمير دمشق بعد جرح كان به من الباطنيّة وأوصى بالملك بعده لولده شمس الملوك إسماعيل وفي سنة ٥٢٧ سار إسماعيل هذا على غفلة من الفرنج إلى حصن بانياس وفتحه.

وفي سنة ثمان عشرين وخمسمائة فسخت الفرنج الهدنة وأقبلت ، فجمع شمس الملوك أمير دمشق المذكور جيشه، واستدعى تركمان النواحي، وبرز في عسكره نحو حوران، فالتقوا، وكانت الفرنج في جمعٍ كثيف، فأقامت المناوشة بين الفريقين أيامًا، ثم غافلهم شمس الملوك، ونهض بشطر الجيش، وقصد عكا والناصرة، فأغار وغنم، فانزعجت الفرنج، وردُّوا ذليلين، وطلبوا تجديد الهدنة.

وفي سنة تسع وعشرين وخمس مئة أخذ زنكي المعرّة من الفرنج، وقد بقيت في أيديهم سبعاً وثلاثين سنة.

وفي هذه السنة سنة تسع وعشرين وخمس مئة توفّي شمس الملوك إسماعيل بن بوري بن طغتكين . المذكور سابقاً وكان شجاعا قاتل الفرنج ولكنه كان ظلوماً عسوفاً فكرهته الرعية ولم يكن كوالده وجده.

وفي أربع وثلاثين وخمس مئة حاصر زنكي أمير الموصل مدينة دمشق، وقاتل جندها وكاد أن يأخذها ثم توفي أميرها وهو محاصر لها فلما ألح عليهم زنكي بالقتال راسل قائد يقال له: أنر وهو الذي تولى الإمارة فيها راسل الفرنج يستنجد بهم ؟ وخوفهم من زنكي إن تملك دمشق، فتجمعت الفرنج، وعلم زنكي، فسار إلى حوران لملتقاهم فهابوه ولم يجيئوا، فعاد إلى حصار دمشق.

ثم جاءت الفرنج واجتمعوا بـ: أنر، فسار في عسكر دمشق إلى بانياس، وهي لزنكي، فأخذها وسلمها إلى الفرنج ؟! فغضب زنكي، وعاد إلى دمشق، فعاث بحوران وأفسد، وجاء إلى دمشق فخرجوا واقتتلوا، وقتل جماعة، ثم رحل عنها إلى الموصل

وفي هذه السنوات إلى سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة افتتح زنكي فتوحاتٍ عظيمة، وهابته الملوك، واتسعت ممالكه.

وفي سنة تسعٍ وثلاثين وخمسمائة نهض عسكر بعلبك، فأغاروا على الفرنج وهزموهم ورجعوا إلى بعلبك ، وكذلك فعل عسكر حلب.

في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة

قُتل زنكي وهو يحاصر جعبر، فقام بأمر الموصل ابنه غازي، وقام بحلب ابنه الآخر نور الدين محمود وهو الملك العظيم العادل الآتي ذكره.

وفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة سار نور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب يومئذ ففتح حصن أرتاح، وهيو بقرب حلب، استولى عليها الفرنج، فأخذه عنوة، وأخذ ثلاثة حصون صغار للفرنج، فهابته الفرنج.

وفي سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة

جاءت من الفرنج ثلاثة ملوك إلى بيت المقدس وعزموا على قصد الإسلام فخرجوا ونازلت الفرنج دمشق في عدد كثير واستمر القتال أياماً فلما كان في اليوم الخامس، وصل غازي بن أتابك زنكي في عشرين ألف فارس، ووصل أخوه نور الدين محمود إلى حماه رديفًا له، وكان في دمشق البكاء والتضرّع وفرش الرماد أيامًا، وأُخرج مُصحف عثمان إلى وسط الجامع، وضجّ النساء والأطفال مكشّفين الرؤوس، فأغاثهم الله.

قصة قدوم ملك الألمان ورغبته في أخذ دمشق وكيف كانت الحيلة في ردّه.

سار ملك الألمان من بلاده في خلق كثير، عازمًا على قصد الإسلام، واجتمع معه الصليبيون يعني فرنج الشام، وسار إلى دمشق، وبها مجير الدين من أحفاد بُوري، وكان معه (أتابكه) قائد فاضل حكيم واسمه : معين الدين أُنُر فاستنجد بأولاد زنكي فنجدوه وخرج بالناس إلى قتال الفرنج، وقويت الفرنج، وتقهقر المسلمون إلى البلد، ونزل ملك الألمان بالميدان الأخضر، وأيقن الناس بأنه يملك البلد. فاحتال عليهم معين الدين وأرسل يقول للفرنج الغرباء: إن ملك الشرق قد حضر، فإن رحلتم، وإلا سلّمت دمشق إليه، وحينئذ تندمون، وأرسل إلى فرنج الشام يقول لهم: بأي عقل تساعدون هؤلاء الغرباء علينا، وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية يعني سواحل الشام ؟ وأنا إذا رأيت الضعفَ عن حفظ البلد سلّمته إلى ابن زنكي، وأنتم تعلمون أنه إن ملَك لا يبقى لكم معه مقام بالشام، فأجابوه إلى التخلي عن ملك الألمان، وتنازل لهم عن حصن بانياس، فاجتمعوا بملك الألمان، وخوّفوه من عساكر

الشرق وكثرتها، فرحل وعاد إلى بلاده وراء القسطنطينية. وفي هذه القصة عبر منها أثر الحيلة في الدفع عن عورات المسـلمين ومنها أثر اختلاف ملوك النصـارى في التخفيف عن جيوش المسـلمين في تلك العهود الغابرة.

وفيه هذه السـنة أمر نور الدين زنكي بإبطال: حيّ على خير العمل، من الأذان بحلب، فعظُم ذلك على الإسماعيلية والرّافضة الذين بها.

وفي سنة أربع وأربعين وخمسمائة

غزا نور الدين محمود بن زنكي فكسـر الفرنج، وقتل صـاحب أنطاكية، وكانت وقعة عظيمة ثم افتتح نور الدين حصن فامية، وكان على أهل حماة وحمص منه ضرر عظيم.

واحتال حتى أسـر (جوسـلين) صـاحب حصـون تل باشـر، وعزاز، وعينتاب، ومرعش، وكان قد آذى المســـلمين ونكّل فيهم بالغارات والســـبي وغير ذلك فقال نور الدين لجماعة من التركمان من جاءني بـــــ:جوســـلين أعطيته مهما طلب، فنزلوا بأرض عينتاب، فأغار عليهم جوســـلين، وأخذ امرأة مليحة فأعجبته، وخلا بها تحت شـجرة، فكمن له التركمان وأخذوه أسـيرًا، وأحضـروه إلى نور الدّين، فأعطى الذي أسره عشرة آلاف دينار، وكان أسرُه فتحًا عظيمًا، واستولى نور الدّين على أكثر بلاده.

وفيها نازل نور الدين أنطاكية وحاصـــرها بعد حروب إلى أن ذلّوا وســـلموها بالأمان ثم جاءتها أمداد الفرنج، ثم اقتضت الحال مهادنة من في أنطاكية وموادعتهم.

وأمّا أعمال دمشـق وقراها كحوران، وغيرها، فعاثت بها الفرنج، وأجدبت الأرض، ونزح الفلاحون عنها، فجاء نور الدين بجيشـه إلى بعلبك ليوقع بالفرنج، ففتح الله بنزول غيث عظيم، فعظُم الدعاء لنور الدّين، وأحبّه أهل دمشق وقالوا: هذا ببركته وحُسن سيرته.

ولما رأى نور الدين تقصير أمير دمشق وقوادها عن الدفاع عنها وضعفهم واختلافهم واستعانتهم بالفرنج أحيانا نزل بدمشـق وأرسـل إلى أميرها ومن معه: إنني ما قصـدتُ بنزولي هنا طلبًا لمحاربتكم، وإنما دعاني كثرة شكاية أهل حوران والعُربان، وقد أخذت أموالهم وأولادهم، ولا ينصرُهم أحدٌ فلا يسعني مع القُدْرة على نُصـرتهم القعودُ عنهم، مع علمي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذبّ عنها، والتقصـير الذي دعاكم إلى الاستصراخ بالإفرنج على محاربتي، وبذلكم لهم أموال الضعفاء من الرعية ظلمًا وتعدّيًا، فكان جوابهم: ليس بيننا وبينك إلا السيف، فكثر تعجّب نور الدين، وأنكر هذا، وعزم على الزّحف إلى البلد، فجاءت

أمطارٌ عظيمة منعته من ذلك، ثم تقرر الصــلح في أول ســـنة خمسٍ وأربعين، فإن نور الدين أشــفق من ســفك الدّماء، فبذلوا له الطّاعة، وخطبوا له بجامع دمشــق بعد الخليفة والســلطان، وحلفوا له ورجع إلى حلب وقد أحبه الناس لما رأوا من دينه وعدْله.

وفي سنة ثمان وأربعين وخمس مئة أخذت الفرنج عسقلان بعد قصة عجيبة فيها عبر كثيرة:

فقد كانت منيعة ســنين متطاولة على الفرنجة ، وفي كل ســنة يقصــدونها ويحاصــرونها، و كان المصــريون يرسـلون إليها عن طريق البحر الأسـلحة والذخائر والأموال. فلما كان في هذا العام جاء الصـليبيون إليها فخرج المسـلمون وقاتلوهم وطردوهم، فأيسوا من أخذها، وعزموا على الرحيل عنها، فأتاهم الخبر بأن أهل البلد قد اختلفوا، وذلك لأنهم لما قهروا الفرنج داخلهم العجب، وادعى كل طائفة أن النصــرة على يده، ووقع بينهم خصــام على ذلك حتى قُتل بينهم رجل، فعظُمت الفتنة، وتفاقم الشــرّ، وتحاربوا، فقُتل بينهم جماعة، وزحفت الفرنج في الحال، فلم يكن على السور من يمنعهم، فملكوا البلد.

وفي ســنة تســع وأربعين وخمس مئة حصــل الفرج لدمشــق وأهلها فقد تســلّم نور الدين دمشــق بعد أن حاصرها، فسلّم إليه أهل البلد من ناحية الباب الشرقي، وحصَر صاحبها الملقب بمجير الدّين في القلعة وكانت الفرنج قد ملكوا عسـقلان، وطمعوا في دمشــق، وكان لهم على أهلها كل ســنة ضــريبةٌ، فتجيء رسـلهم ويأخذون من الناس، فاحتال نور الدّين وراسـل مالكها مجير الدين واسـتماله، وواصـله بالهدايا، وأظهر له المودة حتى ركن إليه، واحتال نور الدين بحيلة فكان يقول لصـــاحب دمشـــق هذا إن فلانًا قد بعث إليّ وكاتبني في تســلُّم دمشــق فاحذره، فكان يقبض على ذلك الرّجل من قواده، أو يقطع خبره، إلى أن قبض على نائبه عطاء وقتله، وكان نور الدين لا يتمكن مع وجود عطاء هذا من أخذِ دمشق .

وكتب المقتفي – الخليفة العباســـي في بغداد – عهدًا لنور الدّين محمود بن زَنكي، وولّاه مصـــــر، وأمره بالمسير إليها، ولكنه كان مشغولًا بحرب الفرنج وبالجهاد. ولُقِّب نور الدين بالملك العادل.

وكان الخليفة المقتفي الخليفة العباسي قد قوي سلطانه في هذه السنوات واستوزر الوزير الصالح الفقيه عون الدين ابن هبيرة الحنبلي شـيخ الإمام ابن الجوزي وغيره فانتظمت أمور العراق بعد بلاء اسـتمرّ عشـرات السنين بل قروناً وإنْ تفاوت في بعض الأحوال وتحسّن الحالُ في حُكْم بعض الخلفاء.

وفي سنة (٥٥٤ هـ) صالح نور الدّين ملكَ الرّوم القادمَ من القسطنطينية وأجيب ملك الروم إلى ما التمسه من إطلاق مقدَّمي الفرنج، فأطلقهم نور الدّين صلحاً.

فائدة مهمة:

لقد استمر انقسام ملوك النصارى واختلافهم في المشرق العربي عقودا طويلة وكان ذلك من أعظم أسباب التخفيف عن المسلمين فقد كان بين ملك الروم في مدينة القسطنطينية (إسطنبول فيما بعد) وبين بعض ملوك المسلمين معاهدات وصلح فلذلك لم يقم بإعانة الفرنج الصليبيين على المسلمين بل استمر على عهده بل قيل إنه ساعد في الباطن المسلمين أحياناً كما سيأتي في قصة ملك الروم مع ملك ألمانيا وقد استمرّ هذا مدَّة من الزّمان في عهد نور الدّين وغيره ثمّ بعد ذلك في عهد السّلطان صلاح الدّين الأيّوبي فقد كان صُلح صاحب القسطنطينية مع صلاح الدّين فيما بعد من أسباب الفرج والتخفيف عن المسلمين حينما اشتدّ الضغط على جيوش صلاح الدين من الفرنجة حتى بعد تحرير بيت المقدس كما سيأتي سرد قصة ذلك. بإذن الله. وفي هذا عبر كثيرة.

نهاية الجزء الأول.

د/ عبد الله بن علي الميموني